يا رسـول الله !

لأستاذ جليل

إن الدهر قد جار على قوم عرب ! ! !

روى المسعودى فى (التنبيه والإشراف) أخبار طائفة من الأفذية بين العرب والروم ، منها خبر هذا الفداء :

« الفداء الأول فداء أبى سليم ، كان أول فداء جرى فى أيام ولد العباس فى خلافة الرشيد باللامس[1] من ساحل البحر الرومى على نحو من خمسة وثلاثين ميلاً من طرسوس[2] سنة ١٨٩ — والملك على الروم نقفور — وذلك على يد القاسم بن الرشيد وباسمه ، وهو معسكر بمرج دابق من بلاد قنسرين من أعمال الحلب . حضر هذا الفداء وقام به أبو سليم فرج خادم الرشيد المتولى له بناء طرسوس فى سنة ١٧١ للهجرة ، وسالم البربرى مولى بنى العباس فى ثلاثين ألفاً من المرتزقة ، وحضره من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار نحو من خمس مئة ألف ، (وقيل أكثر من ذلك) بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة . قد أخذوا السهل والجبل ، وضاق بهم الفضاء . وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزى ، ومعهم أسارى المسلمين وكان عدة من فودى به من المسلمين فى اثنى عشر يوماً — ثلاثة آلاف وسبع مئة — (وقيل أكثر من ذلك) . والمقام باللامس نحو من أربعين يوماً قبل الأيام التى وقع الفداء فيها وبعدها » .

وذكر المسعودى فى ذلك الكتاب هذا الخبر :

« كانت ملوك الروم تكتب على كتبها من فلان ملك النصرانية فغير ذلك نقفور[3] ، وكتب (ملك الروم) ، وقال هذا كذب ، ليس (أنا) ملك النصرانية ، أنا ملك الروم ، والملوك لا تكذب وأنكر على الروم تسميتهم العرب : (ساراقينوس) تفسير ذلك عبيد سارة ، طعناً منهم على هاجر وابنها اسمعيل . وقال : تسميتهم عبيد سارة كذب . والروم إلى هذا الوقت — يعنى سنة ٣٤٥ — تسمى العرب ساراقينوس » .

* * *

قرأت ما روى المؤرخ المسعودى فرددت :

تذكرتُ والذكرى تهيج لذى الهوى
ومن حاجة المحزون أن يتذكرا[1] !

وخط القلم هذا المكتوب : أقمنا وجيراننا الروم — بضعة قرون — نتغاور ونتعارك ونتناحر : تصبح أجنادنا وبعوثنا : (الصوائف ، والشواتى ، والربيعيات) درويهم ومدائنهم وتمسيها

لما حللتَ الثغر أصبح عالياً للروم من ذاك الجوار — جوار[2]
أبقت بنى الأصفر المراض كأنهم
صفر الوجوه ، وجلت أوجه العرب[3]
أنت طول الحياة للروم غاز فمتى الوعد أن يكون القفول[4]

وكيف ترتجى الروم والروس هدمها

وذا الطعن آساس لها ودعائم[5]

وتطلع على ربوعنا والعواصم[6] بنودُ الروم[7] يقاتلون مستبسلين .

كنا نتحارب ، وكنا نتهادن ، ونفادى أسرانا عندهم ، ويفادون أساراهم عندنا والحرب سجال

وكان تنابز بالألقاب ، فكنا نقول لذوى القرون[8] : يا أعلاج يا علوج !

ويقولون لنا ساخرين : سراقينوس ! .

فلما وهنوا ووهنا وهلكوا وهلكنا أقبل قبيل كنا بهدينا

---

(١) اللامس : قرية على شط بحر الروم من ناحية ثغر طرسوس ، كان فيها الغزاة بين المسلمين والروم . يقدم الروم فى البحر فيكونون فى سفنهم والمسلمون فى البر ، وتهم الغزاة (معجم البلدان)

(٢) طرسوس مدينة بثغور الشام بين إنطاكية وحلب وبلاد الروم ، وبها قبر المأمون ، جاءها غازياً فأدركته منيته (معجم البلدان)

(٣) فى تاريخ الطبرى : الروم تذكر أن نقفور هذا من أولاد جفنة من غسان . وفى التنبيه والاشراف : قيل : بل من ولد عنصرة إياد الذين دخلوا فى أرض الروم من بلاد الجزيرة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

(١) للنابغة الجعدى فى مشوبة فى الجمهرة ومطلعها :
خليلى عوجا ساعة وتهجرا ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا

(٢) أبو تمام فى أبى سعيد الثغرى (جوار) جوّار ؛ وقد خفف للذى ولع حبيب به ...

(٣) أبو تمام فى المعتصم فى فتح عمورية وفى هذه القصيدة الخالدة يقول :
يا يوم وقعة عموريةَ انصرفت منك المنى حفلا معسولة الحلب
جرى لها الفال برحاً يوم أنقرة إذ غودرت وحشة الساحات والرحب

قال المسعودي : خرج المعتصم إلى أرض الروم غازيا فافتتح انقرة ومدينة عمورية فى شهر رمضان سنة ٢٢٣ .

(٤) ، (٥) المتنبى فى سيف الدولة

(٦) العواصم : قلاع وحصون وبلاد تسمتها إنطاكية

(٧) البنود أعلام الروم تحت كل بند عشرة آلاف

(٨) خرج إلى بلاد ذات القرون وهم الروم لطول ذوائبهم (الأساس)

وعلمناه وهذبناه ومدناه — كما مدنا سواه[1] — وقربناه ، وإن شئت فقل : أنشأناه خلقاً آخر ، وما كان يعد من الناس ، وامتلك دار الروم و « رب ساع لقاعد » . وقد كافأنا لئيم شر مكافأة :

جزتنا بنو (مُقل) بحسن فعالنا جزاء سنمار ، وما كان ذا ذنب !

خرب لنا حضارة فى مصر ، ونهب الناهب كنوزنا ، وتمالأ هو والإفرنجى علينا فى هذا الوقت ، وابتز المختلس الظالم حقاً هو لنا

فإن الماء ماء أبى وجدى وبئرى ذو حفرت وذو طويت !

وضام — غير راحم ولا كريم — فى الربع المحروب كل عربى نصرانى أو حنيف ! وشرّد العرب البائسين فى البلاد تشريداً ! وحقر لوغادته لغة (الكتاب) المبين — الله أكبر ، الله أكبر ! — وهى التى كوّنت لسانه ؛ فنطق الأعجم مثل الناطقين

ألا إن المربيين لمستأهلون[2] — بما شقوا ليسعد غيرهم — أن يقول لهم الروم : « سراقينوس » مستهزئين وشامتين

* * *

يا محمد ! يا محمد !

لقد ضامتنا فى هذا الزمان الإفرنجى والتركى حتى ذاك الذى ضربت عليه الذلة — جهلاً بك يا منيّةَ جهلْ — وكان ضعفنا ولؤمنا وتعادينا وصدّعاتنا[1] وغضبك علينا ، غضبك على الخلْف الخالف من أجل ذلك — أقوى معين للضائمين !

فإن لم تمنّ على المنتمين إلى عربية (قرآنك) العربى بشىء من عطفٍ ورضا هلك — يا سيدى أبا القاسم — أتباعك ، خدام (كتابك) خدام (لسانك) خدامك — فى الهالكين

ياسيّدالوجود يا رسول الله ! يا أبا بكر الصديق ! ياعمر الفاروق !

يا ذا النورين ! يا أبا الحسنين ! إن الدهر قد جار على قومٍ عرب !

(م)

(١) نحن الحفاة والعراة ورعاة الابل ، نحن الذين بلغوا الرسالة ، رسالة محمد ، رسالة الحق والعدل والتفكير والحرية والمساواة ، وهدوا الناس ومدنوا أوربة . قال صاحب كتاب La civilisation des Arabe فى ختام كتابه فى الصفحة ٦٧٧ :

Au point de vue intellectuel et moral ils ont civilisé l'Europe

(٢) اللسان: الأزهرى : خطأ بعضهم قول من يقول فلان يتأهل = أن يكرم أو يهان بمعنى يستحق ، وأما أنا فلا أنكره ولا أخطئ من قاله واستحسن الزمخشرى الكلمة استحسان الأزهرى

(١) الصدعات : التفرق فى الرأى والهوى . وفى الأساس : أصلحوا ما فيكم من الصدعات .